سؤال المنهج في كتاب (مع المتنبي) لطه حسين

د. إحسان بن صادق اللواتي

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة السلطان قابوس

Dr. Ehsan Sadiq Allawati

Associate professor

Arabic department

Sultan Qaboos University

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة كتاب طه حسين (مع المتنبي) من منظور منهجي، فقد أثار هذا الكتاب منذ صدوره في العام 1937م كثيرًا من النقاش بين دارسيه بشأن المنهج الذي اتّبعه مؤلفه فيه، وتنوعت في هذا المجال إجاباتهم وتباينت اجتهاداتهم، واستند كل منهم إلى أدلته وشواهده الخاصة التي سوّغ بها رأيه.

إنّ هذه الدراسة تثير سؤال المنهج من منظورها القرائي الوصفي الخاص، منطلقةً من مناقشة آراء الدارسين السابقين، وصولًا إلى صياغة إجاباتها الخاصة عن السؤال، ومتناولةً بعد ذلك أهم ما يرتبط بالناحية المنهجية، مما يمكن أن يُحتسب في صالح الكتاب أو ضده.

Abstract:

This study seeks to approach the book of Taha Hussein "Ma’a al-Mutanabi" from a systematic perspective. Right since its publication in 1937, the book under study has provoked, a lot of discussion between researchers on the approach followed by the author, and their answers have varied and their interpretations are diverse, each based on evidence And his own testimony to which He has cast his opinion.

This study raises the question about the approach based on its own descriptive reading perspective, from discussing the views of earlier scholars, to formulating its own answers to the question, and then dealing with the most important methodological aspects, which can be counted in favor of or against the book.

المقدمة:

أثار كتاب طه حسين (مع المتنبي)، منذ صدوره في عام 1937م، كثيرًا من التعليقات وردود الأفعال، موزّعة على نواحٍ مختلفة تناولت الكتابَ ومؤلفه منها. وليس هذا بالمستغرب؛ لخصوصية مكانة المتنبي في قمة هرم الشعر العربي، وللطريقة المتميزة التي تم تناول الكتاب بها، وهي الطريقة التي ستتضح أهم معالمها في مباحث هذه الدراسة.

إنّ أهمّ القضايا التي استوقفت دارسي الكتاب وكانت – ولا تزال – موضع اختلاف آرائهم قضية المنهج المتّبع فيه، فمن الدارسين – كما سيأتي في التفاصيل اللاحقة - من نفى وجود أي منهج اعتمده طه حسين في الكتاب، عدا تلك الانطباعية الخالصة التي لا تكاد تخفى في كل مباحث الكتاب وفصوله، ومنهم من سعى إلى وضع يده على منهج محدد، محاولًا إبراز سمات له وملامح في الكتاب، وبينهم من أثار فكرة كون الكتاب يوفّق بين مناهج متعددة، ولا يتقيّد بأحدها على وجه الحصر والتعيين.

وتحاول هذه الدراسة أن تثير سؤال المنهج من زاوية نظرها الخاصة، بمقاربة منهجية وصفية تحليلية، تتوخى أن تقرأ، في البدء، الجهود السابقة التي قدّمها الدارسون في دراساتهم التي اتخذت منحيين اثنين: فثمة دراسات ترتبط بهذا الكتاب الذي هو محل الكلام على وجه التحديد، ودراسات أخرى لا تختص به، بل تعمّ جهود طه حسين كلها أو بعضها، وتتناول جهده في هذا الكتاب في خضمّ ذلك المجال الواسع الذي تخوضه.

وبعد هذه القراءة تنتقل الدراسة إلى محاولة تحديد إجابتها عن سؤال المنهج، فتعرض ما توصلت إليه بعد قراءة فاحصة للكتاب، ومحاولة جادة للاستفادة من معطياته وتفصيلاته التي يمكن لها أن تشكّل سمات دالة، وعلامات فارقة، تقود بالنتيجة إلى تحديد منهج طه حسين في كتابه هذا. ولا يفوتها، بعد هذا، أن تقف عند ما يتصل بالمنهج من آراء وملحوظات أبداها دارسو الكتاب، سواء أكانت في سياق الإشادة بالكتاب أم في سياق ثلبه وانتقاصه، لتقول في ذلك كلمتها التي تراها متفقة مع الكتاب وسماته المنهجية. وليس ثمة من شك في أنّ هذا الحديث المنهجي كله يتطلب وقفة قصيرة مع مصطلح (المنهج) لتحديد المراد منه في هذه الدراسة على وجه الدقة.

(المنهج)، في اللغة: من المادة "نهج" التي تحمل دلالة وضوح الطريق واستبانته، فيقال: "طريقٌ نَهجٌ: بيّنٌ واضحٌ، وهو النَهجُ... وطُرقٌ نَهجةٌ، وسَبيلٌ مَنهجٌ كَنهج، ومَنهجُ الطريقِ وَضَحُه، والمِنهاجُ كالمنهجِ" ([1]). وفي الاصطلاح يظهر أنّ علم الفلسفة كان المصدر الأول الذي استقي منه المصطلح؛ فالمنهج، فلسفيًا، "في أعم معانيه، وسيلة لتحقيق هدف، وطريقة محددة لتنظيم النشاط، وبالمعنى الفلسفي الخاص، كوسيلة للمعرفة، المنهج طريقة للحصول على ترديد ذهني للموضوع قيد الدراسة"([2]). وتسرّب هذا المفهوم العام للمنهج إلى الجهاز المصطلحي في اللغة والأدب، شأنه في هذا شأن غيره من العلوم والحقول المعرفية المختلفة، فصارت المعاجم المصطلحية تتحدث عن أنّ المنهج "بوجه عام:

وسيلة محددة توصل إلى غاية معيّنة، والمنهج العلمي: خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية، بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها"([3]). وبتعبير آخر: إنّ "المنهج وسيلة ضرورية للوصول إلى الحقيقة بأنجع ما يمكن من الأدوات والمفاهيم والقواعد المنظِمة والمنظَمة"([4]).

هذا كله فيما يرتبط بالمفهوم العام للمصطلح، أما فيما يرتبط بالمنهج النقدي في دراسة الأدب تحديدًا، فهناك تعريفات متعددة تتفاوت فيما بينها سعةً وضيقًا، وضحالةً وعمقًا. فبينا يوجد تعريف يسير ينظر إلى المنهج بوصفه آلية أو طريقة لتحليل النصوص، كالتعريف القائل: "ويقصد بالمنهج النقدي في مجال الأدب تلك الطريقة التي يتبعها الناقد في قراءة العمل الإبداعي والفني قصد استكناه دلالاته وبنياته الجمالية والشكلية"([5])، يوجد تعريف آخر ينظر إلى العملية المنهجية بوصفها عملية مركبة من أطراف ثلاثة هي: النظرية والمنهج والمنظومة الاصطلاحية: "فالمفهوم المعرفي المؤسس للأدب هو النظرية، والمنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها، ويمارس فاعليته، ويتم تداوله عبر جهاز اصطلاحي يحمل قنوات تصوراته ويضمن كيفية انطباقها – قربًا أو بعدًا – مع الواقع الإبداعي"([6]).

والحقّ أنّ الفصل بين هذه الأطراف الثلاثة للعملية المنهجية ينبغي أن يكون فصلًا في مقام التحليل والشرح النظري فحسب، أما في المقام التطبيقي فالأطراف كلها تتبدى معًا، مرتبطة بعلاقة جدلية مؤثرة فيما بينها؛ ذلك أنّ "المنهج طريق

يرسمه السالك قبل السير، سعيًا منه إلى بلوغ هدف مخصوص، إلا أنه لا يدرك نجاعته إلا بعد قطع الطريق. ويبقى المنهج في جميع الحالات مقترنًا بالعلم والعمل، فهو معرفة وطريق إلى مزيد المعرفة في ذات الوقت، نظرية وآليات"([7]).

المنهج النقدي فيما تتبناه هذه الدراسة، إذًا، هو الطريق الواضح الذي يسلكه الناقد في تعامله مع النص الأدبي، منطلقًا من الأساس النظري الذي يعتنقه، ومستعينًا بالأدوات النقدية المتلائمة مع ذلك الأساس، وأهم تلكم الأدوات الجهاز المصطلحي المناسب.

منهج الكتاب في أنظار دارسيه:

ذكر طه حسين في بدء كتابه كلامًا استرعى أنظار الدارسين:

"لا أريد أن أدرس المتنبي إذن، فالذين يقرؤون هذه الفصول لا ينبغي أن يقرؤوها على أنها علم، ولا على أنها نقد، ولا ينبغي أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد. وإنما هو خواطر مرسلة تثيرها في نفسي قراءة المتنبي في قرية من قرى الألب في فرنسا، قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة، وعلى غير نسق منسجم... وقل ما تشاء في هذا الكلام الذي تقرؤه: قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول، وقل إنه كلام يهذي به صاحبه هذيانًا. قل إنه كلام يصدر عن رأي وأناة، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح. فأنت محقّ في هذا كله؛ لأني مرسل نفسي على سجيتها..."([8]).

هذا الكلام يجعل قارئه يعتقد بأنّ الكتاب الذي بين يديه غُفل من المنهج، فهو ليس إلا مجموعة من الخواطر المرسلة المنبعثة من نفس مرسلة على سجيتها، لكن المؤلف دفع هذا الاعتقاد وأزاله حين قال في نهاية الكتاب:

"إني حين أقبلت على صحبة المتنبي في الصيف الماضي لم أكن جادًا ولا صاحب بحث ولا تحقيق، وإنما كنت عابثًا... ولكني لم أكد ألقى المتنبي وآخذ في الحديث معه، أو الحديث عنه، حتى صرفني عن اللهو والعبث، واضطرني إلى محاولة البحث والتحقيق..."([9]).

فهذا الكلام صريح في أنّ الكتاب "بحث"، و"تحقيق"، ولا بد لهذين من أن يقوما على أساس من منهجية معيّنة يتّبعانها، فماذا قال الدارسون عنها؟

ذهب أحمد بو حسن إلى أنّ منهج الكتاب "يعتمد على الجانب التاريخي أساسًا، ويسخّر القراءة الذوقية الانطباعية لتزكيته"([10]).

وصرّح جابر عصفور أيضًا بوجود الانطباعية في الكتاب، قائلًا: "ويكشف طه حسين عن انطباعيته النقدية ويعلن عنها، بنفس القدر، عندما يقول: (أنا لا أطلب من الشاعر أن يفهمني ما أراد حقًا. وأنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أن يُفهمني ما أراد حقًا. وإنما أريد من الشاعر البارع كما أريد من الموسيقي الماهر أن يفتح لي أبوابًا من الحس والشعور ومن التفكير والخيال) ولو مضينا مع دلالات هذا الذي يقوله طه حسين لقلنا: إنّ الناقد الانطباعي لا يطلب من الشاعر أن يُسمعه شيئًا يتجاوز عالم الناقد الخاص"([11]).

ولاحظ جابر عصفور كذلك حضور النقد العربي القديم في الكتاب، إذ "يعتمد بحث طه حسين عن هذا الجانب من الجمال الفني على مجموعة من الأفكار التراثية، تمثّل نغمة تحتية توجّه تذوّق طه حسين للنصوص الأدبية. وتتآلف – في هذه النغمة – كلمات ابن قتيبة عن الشعر الذي حسن لفظه دون معناه، مع كلمات ابن طباطبا عن الأشعار المموّهة العذبة التي تروق الأسماع والأفهام إذا مرّت صفحًا، فإذا حُصّلت وانتقدت بهرجت معانيها. وتتحول أمثال هذه الكلمات إلى عنصر ملحّ، يتكرر في تعامل طه حسين مع النصوص الأدبية، يستوي في ذلك حديثه عن شاعر أو حديثه عن قصيدة أو حديثه عن جزء من قصيدة"([12]).

والملحوظة نفسها موجودة أيضًا عند إبراهيم عبد الرحمن محمد الذي قال: "وأول ما نلاحظه أنّ مكوّنات هذا المنهج التأثّري قديمة، تجري على درب النقد العربي القديم كما يتجلى بصفة خاصة في الوساطة والموازنة والبيان والتبيين وغيرها من كتب القدماء في البلاغة والنقد والأدب"([13]).

وقد مال الباحث نفسه أيضًا إلى أنّ "طه حسين يصطنع في دراسة المتنبي، حياته وشعره، منهجًا مركبًا من عنصرين: الأول: منهج النقد الطبيعي أو النقد التجريبي كما كان يُعرف في القرن التاسع عشر في فرنسا، والثاني: المنهج التأثري الذي يصدر فيه صاحبه عن إحساساته الذاتية وذوقه الشخصي أكثر مما يصدر عن قواعد وأصول لغوية وجمالية في استخلاص أحكامه النقدية وتعليلها"([14]).

ومن الباحثين مَن مال إلى حضور المنهج النفسي في الكتاب، كما هو شأن عطاء كفافي القائل: "وإذا انتقلنا مع طه حسين من عرض سمات شخصية المتنبي إلى بيان خصائص شعره، نجده في محاولاته توقيت بعض قصائد المتنبي لا يغفل الاتجاه النفسي ويذكره بصراحة تحت مقولة "الطريقة النفسية"... وهو في نقده التطبيقي لخصائص شعر المتنبي كثيرًا ما ينحو نحو الاتجاه النفسي، أو يمزج بين الاتجاهين النفسي والفني"([15]).

ويذهب صلاح فضل إلى أنّ طه حسين اختار أن يتماهى مع المتنبي، مثلما صنع مع أبي العلاء المعري أيضًا في كتاب له آخر: "عندما ننتقل إلى رأس المثلث الحواريّ لنقف مع طه حسين في تفاعله الأدبي مع صاحبيه (يعني بذلك المتنبي وأبا العلاء) نجد أنه من بين مصطلحات الجهاز المعرفي النقدي المحدث هناك توصيف ينطبق عليه إلى درجة كبيرة، وهو مأخوذ من مجال الهرمينيوطيقا، ويتميز بتضمنه لعدة مستويات تتحدد من خلالها مواقف المتلقي عامةً، والناقد التأويلي في ممارسته للتجربة الجمالية بصفة خاصة، وأعني به مصطلح "التماهي" الذي يشير إلى توحّد المتلقي مع المرسل وامتزاج العناصر الجوهرية في شخصيتيهما"([16]).

ومن هذا المنطلق ينقل صلاح فضل كلام طه حسين بشأن بيتين قالهما المتنبي في صباه: "وسواء أكان هذا الشعر جيدًا أم رديئًا، مستقيمًا أو ملتويًا، فإني أجد في نفسي حبًا له وميلًا إليه؛ لأني أتمثل هذا الجهد العنيف الذي بذله هذا الصبي الذكي حتى استخرج هذين البيتين. ومن يدري؟ لعلّي إنما أحب هذين البيتين

وأعجب بجهد الصبي في استخراجهما؛ لأني شهدت صبيًا أحبه يبذل هذا الجهد، وينفق مثل هذا الوقت، ويستخرج مثل هذا الشعر، ولم أجد بدًا من أثني له على شعره، وأهنئه بما انتهى إليه من الفوز. ولم أكن في هذه التهنئة ولا في ذلك الثناء متكلفًا ولا غاليًا، وإنما كنت صادقًا مرسلًا نفسي على سجيتها، أصدر عن العاطفة أكثر مما أصدر عن الفن"([17]). ثم يعلّق عليه بقوله: "ولا أحسب هذا الصبي شخصًا آخر سوى طه حسين نفسه، فهو شديد الاعتداد بذاته والحنو على طفولته وصباه والتقدير لإنتاجه"([18]).

ويرى السيد تقي الدين أنّ طه حسين لم يلتزم في كتابه بمنهج واحد التزامًا كاملًا، بل توزعت جهوده لتشمل عدة مناهج، فـ "المنهج النفسي أقرب هذه المناهج إلى نفسه وأشدها جذبًا لانتباهه... وطه حسين لا يغفل المناهج الأدبية الأخرى كالمنهج الفقهي والمنهج الاجتماعي، ونلمح آثارًا لهذه المناهج كلها في هذا الكتاب، كما تطل علينا نظرية البيئة وأثرها في الأدب في كثير من صفحات الكتاب"([19]).

الإجابة عن سؤال المنهج:

إنّ الكتاب وإنْ كان تاريخي الصبغة العامة، كونه يتعامل مع عصر سابق وشاعر قديم، فإنّ تاريخيته لم تكن من ذلك النمط الطاغي الذي يمحو وجود غيره، من خلال الإصرار على نقل الأحداث والروايات التاريخية بشكل متتابع جاف. التاريخية في الكتاب إنما هي غطاء مموه عام، وليست الجوهر الذي قام الكتاب

عليه، ومن هنا قال جابر عصفور: "ويتبدل نهج (تجديد ذكرى أبي العلاء) بقواعده التاريخية لتحل محلها قواعد مغايرة لنهج مغاير في (مع المتنبي) ([20]).

أما الانطباعية (أو التأثرية) في النقد التطبيقي في الكتاب فهي أوضح من أن تخفى، وأجلى من أن تُنكر. ويكفي قارئَ الكتاب أن يتوقف عند تعليقات المؤلف على أية قصيدة أو مقطوعة ينقلها ليلحظ صدق هذا الأمر. فمن ذلك مثلًا قوله: "ثم انظر إلى البيت الثاني (الكامل):

جهد الصَّبابةِ أن تكونَ كما أرى   عينٌ مسهّدةٌ وقلبٌ يخفقُ

فهل ترى غناء أصدق من هذا الغناء وأبلغ تأثيرًا في النفس؟ ومع ذلك فليس في البيت شيء جديد ولا معنى طريف، ولكن صدق لهجة الشاعر، والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب يشيع في هذا البيت حزنًا لا أدري كيف أحققه، ولكني أعلم أنه شديد العدوى، سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه"([21]).

ويبدو أنّ طه حسين كان يقدّم انطباعيته هذه واعيًا لما يقوم به، ومطمئنًا لصحته، كيف لا؟ وأستاذه لانسون هو القائل: "فالنقد التأثري نقد مشروع لا غبار عليه، ما ظل في حدود مدلوله. ولكن موضع الخطر هو أنه لا يقف قط عند تلك الحدود. فالرجل الذي يصف ما يشعر به عندما يقرأ كتابًا مكتفيًا بتقرير الأثر الذي تخلّفه تلك القراءة في نفسه، يقدّم بلا ريب للتاريخ الأدبي وثيقة قيّمة نحن في حاجة ماسة إلى أمثالها مهما كثرت، ولكن مثل هذا الناقد قلما يمسك عن أن يزجّ بأحكام

تاريخية خلال وصفه لأثر الكتاب في نفسه، أو أن يتخذ من ذلك الأثر وصفًا لحقيقة الكتاب الذي يقرؤه"([22]).

وموضع الخطر هذا الذي عبّر عنه لانسون باتخاذ الناقد التأثري ما في نفسه من أثر للكتاب وصفًا لحقيقة ذلك الكتاب يبدو أنه هو الذي دعا طه حسين إلى أن يذكر، في نهاية كتابه وتحت عنوان "بعد الفراغ"، أنه لا يطمئن إلى كون الصورة التي رسمها للمتنبي من خلال شعره صورةً مطابقة للواقع على ما هو عليه، بل لعلّها صورته هو (أي صورة المؤلف نفسه)، تصوّره في لحظات انشغاله بحياة المتنبي([23]).

ولعلّ هذه الانطباعية – في طور استيلائها على لبّ الكاتب وفكره – أن تكون هي السر في تحقق "التماهي" بينه وبين المتنبي، فيما تقدّم نقله عن صلاح فضل؛ لأنّ سعي الناقد الانطباعي الدائب إلى بيان الأثر الذي يخلّفه شعر الشاعر في نفسه، ربما دفع به، من حيث يشعر أو لا يشعر، إلى الارتباط بالشاعر وشعره بصفة حميمية وثيقة. وما هو ببعيد أن يتحول هذا الارتباط – حينما يصل إلى أقصى درجات شدته – إلى نوع من التماهي بين الطرفين المبدع والناقد. وبذا لا يكون التماهي الذي نبّه عليه صلاح فضل سوى وجه من وجوه الانطباعية، في ذروة عنفوانها وتعمّقها. والانطباعية هي، في نظر أندرسون وغيره، مرتبة من مراتب النقد الثلاث: الانطباع، والتفسير، والحكم([24]).

وأما فيما يرتبط بالمنهج الطبيعي أو التجريبي فيما ذكره إبراهيم عبد الرحمن، فقارئ طه حسين يعلم أنه قد انتقد في كتابه "في الأدب الجاهلي"([25]) الناقدين المعروفين سانت بيف وتين. بيد أنّ هذا الانتقاد لا يعني رفض ما ذهب إليه الرجلان رفضًا كاملًا. إنه يرفض الموضوعية التي استهدفاها محاولين جعل النقد الأدبي علمًا من العلوم ذوات الضوابط والمقررات الخاصة المستمدة من مناهج العلوم الحديثة؛ "لأنّ العلم شيء، والأدب شيء آخر"([26])، ويرفض اقتصار كل منهما على جانب واحد من جوانب الأدب دون سواه، وتنكّرهما لقضية الذوق الشخصي للناقد ومؤرخ الآداب.

وهذا كله يعني، بالنتيجة، أنّ من الممكن أن يُلحَظ لآراء سانت بيف وتين نوع من الحضور في الكتاب، بالنحو الذي يرتضيه طه حسين. فحضور سانت بيف ومنهجه في الربط بين الأدب وشخصية الأديب وظروفه واضح جليّ في الكتاب، بل هو الأساس الرئيس الذي قام عليه الكتاب كله، أساس كون أدب الأديب مرآة له، تنعكس فيها شخصيته. وهذا أساس كان سانت بيف قد اعتمد عليه كثيرًا؛ لذا تحدث عنه لانسون بقوله: "وسوف نرى، كما آمل في ذلك، في الصفحات التالية، كيف كان يتقن استخلاص ملامح الكاتب من كتاباته أو شعره أو مذكراته أو خطاباته، ويكتشف في العمل الأدبي المبدأ الحي الذي خلق هذا العمل بصورته الفريدة التي ظهر بها"([27]).

اعتمد طه حسين على هذا الأساس إلى الحد الذي جعله يرفض الروايات التاريخية أو يقف منها موقف المشكّك حينما يجدها تتعارض مع مضامين شعر المتنبي([28])، ويشغل نفسه بمحاولة التغلغل في دخيلة نفس الشاعر وأحاسيسه بغيةَ الربط بينها وبين شعره، ولعلّ هذا هو ما دعا بعض الباحثين إلى القول بحضور المنهج النفسي في الكتاب، كما مرّ نقل ذلك.

واحتمل أحمد بو حسن أن يكون طه حسين قد تراجع عمّا تبنّاه من النظرية المرآتية في خاتمة كتابه حينما شكّك في كون شعر الشاعر مرآة له، محتملًا أن يكون نقد الناقد مرآة له هو([29]). لكن الدراسة الحالية تذهب إلى غير هذا، فطه حسين لم يتراجع عن النظرية، كيف وقد بنى عليها كتابه كله؟ ولكنه إنما أراد بكلامه أن يقول: إنّ شعر الشاعر وإنْ كان مرآة له، إلا أنّ هذه المرآة تتغير وتتلون بحسب الناقد المتأمل، فإن كنت أنا – أي طه حسين – قد لمحتُ المتنبي من خلال شعره بشكل معيّن، فإنّ للباحثين الآخرين أن يلمحوه بشكل مغاير مختلف؛ لأنّ نقد الناقد إنما هو مرآة له وحده.

وإذا انتقل الكلام بعد هذا إلى هيبوليت تين فسيُلحظ أنّ حضور عناصر ثالوثه الشهير (الجنس والبيئة والزمن) لم يكن بدرجة واحدة، بل كان بدرجات متفاوتة، فأقوى هذه العناصر حضورًا في (مع المتنبي) هو عنصر البيئة الذي ركّز طه حسين على مدى تأثيره في شعر المتنبي، فقال عن مرحلة ما بعد خروج المتنبي من السجن: "فما الذي كان ينقص هذا الفتى ليبلغ ما هو أصل له من التفوق الذي لا

يحتمل شكًا والبلوغ الذي لا يتعرض لخلاف؟ كان ينقصه فيما أرى شيئان: أحدهما حياة راضية تشحذ العزم وتحيي الأمل... والآخر بيئة مثقفة، قوية الثقافة، رشيدة بصيرة بالأدب، قادرة على النقد، عالمة بألوان الكلام..."([30]).

وقال عن مرحلة اتصال المتنبي بسيف الدولة: "وواضح أنّ رقيّ شعر المتنبي في هذا الطور من أطوار حياته ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها؛ فالبيئة نفسها كانت تقتضي أحد أمرين: فإما أن يرقى المتنبي ويعلو حتى يمتاز من خصومه ومنافسيه، وإما أن يظل حيث كان حين اتصل بسيف الدولة فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الشعراء"([31]).

ومع تعدد المواضع التي ذكر فيها طه حسين البيئة وتأثيرها، فقد أخذ عليه جابر عصفور كون مصطلح البيئة عنده غير محدّد الدلالة: "بل نحن إزاء أوصاف عامة، تتحدث عن البيئة مثلًا، وعلى نحو قد تعني معه البيئةُ العواملَ الجغرافية، أو الأدوات الإنتاجية، أو علاقات الإنتاج، أو النظم السياسية، أو المناخ الفكري بنحو عام. بل قد تضيق دلالة المصطلح لتنحصر في الوضع العائلي للأديب، وقد تتسع هونًا لتلمح صلة هذا الوضع العائلي بالوضع الطبقي العام، وقد تعني البيئة كل هذه الأشياء مجتمعة..."([32]).

وبدرجة أقلّ من عنصر البيئة، يبرز عنصر (الزمن) وأهميته، من عرض طه حسين لمجمل الأوضاع المحيطة بالكوفة في أوائل القرن الرابع الهجري، إبّان

الظلم السياسي والفساد الاقتصادي والثورات الدموية المتتابعة، وما كان لذلك من أثر في المتنبي وشعره بعد ذلك، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، تبرز عناية طه حسين بالزمن من حرصه على تتبّع مراحل حياة المتنبي، ومحاولة استكشاف الأثر الذي يضفيه مرور الزمن على نفسيته وشعره، وفي هذا يقول جابر عصفور: "وبقدر ما تنطوي هذه الحركة – في الكتاب – على تتبّع للتطور فإنها تصل بين الخط الصاعد للتطور والدرجة المتصاعدة لسلّم القيمة في الشعر وتوحّد بين الاثنين، لتجعل من نقطة البداية – في الخط الزمني للتطور – أهون درجة في سلّم القيمة، وتجعل من نقطة النهاية – في نفس الخط الزماني – أعلى درجة في سلّم القيمة"([33]).

لكن الدراسة الحالية لا تتفق مع هذا القول؛ ذلك أنّ طه حسين لم يجعل سلّم قيمة شعر المتنبي متصاعدًا دائمًا مع تصاعد الخط الزمني. يدل على هذا أنّ شعر المتنبي - في نظره - قد وثب إلى الأوج في طور اتصاله بسيف الدولة([34])، لكنه بعد فراقه له لم يتجاوز الطور الذي انتهى إليه في حلب([35])، بل إنه قد تدنّى كثيرًا في مديحه لابن العميد[36]، ثم أجاد المتنبي، بعد ذلك، في كل ما قاله في شيراز([37]).

يبقى من العناصر الثلاثة التي تحدث عنها الناقد تين عنصر أخير هو (الجنس)، ويبدو أنه غير ذي أهمية كبيرة في نظر طه حسين؛ لذا نجده لا يعير أهمية لإشكالية كون المتنبي عربيًا أو غير عربي: "ليكن المتنبي عربيًا من قحطان أو من عدنان، أو ليكن فارسيًا، أو ليكن نبطيًا، أو ليكن ما شئت..."([38]).

ومع ذلك، فهو يلحظ أنّ قضية ضعة النسب قد أثّرت كثيرًا في شخصية المتنبي، وفي شعره بالنتيجة: "وإنما الذي يعنيني، ويجب أن يعنيك، هو أنّ شعور المتنبي الصبي بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين قد كان العنصر الأول الذي أثّر في شخصية المتنبي، وبغّض إليه الناس..."([39]).

وأما حضور النقد العربي القديم في نقد طه حسين لشعر المتنبي فظاهر لا يمكن إنكاره، فكثيرًا ما يتحدث عن شعره بمثل قوله: "وهذه الخصال هي جزالة اللفظ ورصانته، وصحة المعنى واستقامته، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه، إلا أبياتًا يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك في اللفظ وحده، أو في المعنى وحده، أو في اللفظ والمعنى جميعًا"([40]).

ولكن قد يكون هذا الحضور للنقد العربي القديم (أو للمنهج الفقهي حسب تعبير السيد تقي الدين) راجعًا إلى أزمة المصطلح النقدي في دراسة طه حسين، تلك الأزمة التي أخذها عليه بعض الدارسين كما سيأتي. وفي كل حال؛ فقد لا يكون من الإنصاف أن يكون هذا الحضور لمصطلحات النقد القديم وبعض أفكاره داعيًا إلى نعت منهج الكتاب بأنه فقهي!

وخلاصة القول في المنهج: إنّ طه حسين قد اختط لنفسه، في هذا الكتاب، منهجًا يجمع فيه بين بيف وتين والانطباعية، وبذا يمكن تفسير العناية بشخص المتنبي أكثر من شعره (بوحي من منهج سانت بيف) كما يمكن تفسير الحديث

المؤكّد عن أثر البيئة والزمن (بوحي من تين) وفي الوقت نفسه نجد المسوّغ للانطباعية التي تصل إلى التماهي بين الأديب والناقد.

أصداء الكتاب المنهجية:

من البدهي أن تتوزّع ملحوظات الباحثين الذين علّقوا على الكتاب بين جانبين رئيسين هما: ما للكتاب وما عليه، وإنْ كان هذا الأخير أكثر استحواذًا على اهتمامات الكُتّاب، فيما تلاحظه الدراسة الحالية. وليكن الحديث، إذن، في هذين الجانبين:

1- ما للكتاب:

امتدح تقي الدين، في ختام حديثه عن الكتاب، منهج طه حسين فيه، ودقته وتنظيمه في البحث، وطريقته المبتكرة في إشراك قارئه معه في التفكير واستثارته لعقله، وختم كلامه بقوله: "والشيء الذي يلفت النظر أنّ العميد لم يكن راضيًا عن مروق المتنبي من دينه واستهتاره، الأمر الذي يدعونا إلى أن نطلب له المغفرة عما بدر منه من انحراف عن جادة الصراط المستقيم في "الشعر الجاهلي"، فليس من شك في أنّ حسنات العميد تربو على سيئاته"([41]).

وهذا الكلام أقلّ ما يقال عنه: إنه طريف!

ويشيد سامح كريم بالكتاب بقوله: "وبرغم كل شيء، فإنّ كتاب الدكتور طه حسين "مع المتنبي" سيظل دائمًا مرجعًا للباحث والأديب، فهو يعتبر ترجمة حيّة قويّة صريحة، غيّرت الكثير من نظرتنا إلى شعر هذا الشاعر الكبير"([42]).

وربما تكون هذه الإشادة انفعالية عاطفية أكثر منها علمية دقيقة، اقتضاها التأدب مع العميد بعد أن نقل المؤلف (أي سامح كريم) كل تلك الهجمات القوية من محمود شاكر على الكتاب.

ويلحظ صلاح فضل جانبًا إيجابيًا رائعًا في الكتاب، يدل على سعة أفق طه حسين، فيقول: "من أبرع المشاهد التي يستطيع طه حسين فيها أن يصل إلى درجة عالية من التواصل العميق مع النصوص: ما يحيل التماهي عنده إلى متّكأ للتأويل الخصب، يطرح فيه موقف المحلل المحدود المحكوم بحرفية القول؛ ليفتح أفقًا جديدًا من التفسير المتعدد الدلالات..."([43]).

وكلام فضل يشير هنا إلى مثل قول طه حسين: "فأما اصطناعه للرمز والإيماء فحين يتغزل بالأعرابيات ويطيل في ذكرهن ويؤثرهن على الحضريات. وهذا الجزء من قصيدته مشهور شائع، قد أعجب به الناس منذ زمن بعيد، ولكنهم فهموه على وجهه الظاهر القريب، وأذهب أنا في فهمه مذهبًا آخر، فأرى فيه حنينًا إلى حياته في شمال الشام حيث البداوة أغلب من الحضارة وحيث البأس أظهر من اللين..."([44]).

يتصل بكلام صلاح فضل ما يمكن أن تلحظه الدراسة الحالية من وجود بذور لنظرية "موت المؤلف" التي لم يكتب عنها رولان بارت إلا متأخرًا في عام 1968([45]). ومن الجليّ أنّ ادعاء وجود هذه البذور ليس يعني كون بارت قد استقى كلامه من طه حسين، إنما القضية هنا هي محاولة إبراز وجود ما يمكن أن يشير إلى تشابه في الفكر بين الرجلين. فطه حسين لا يهمه أن يكون المتنبي قد قصد ما فهمه هو من شعره: "كل هذا أفهمه من هذه الأبيات الثلاثة الحزينة التي بدأ المتنبي بها قصيدته، وما يعنيني أن يكون المتنبي قد أراد هذا أو لم يرده، فأنا لا أطلب من الشاعر أن يُفهمني ما أراد حقًا..."([46]).

ويزداد قرب طه حسين من نظرية موت المؤلف في قوله في موضع آخر: "وليس المهم هو أن نفسر الشعر بما فسره المتنبي نفسه في أحاديثه ودروسه بعد أن هرب من مصر، ولا أن نفسر الشعر بما فسره به الشُرّاح الذين سمعوا المتنبي وتأثروا بحديثه، والذين سمعوا الأخبار أو صنفوها حول ورود المتنبي على كافور وإقامته. وإنما المهم أن نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غُفلًا من كل تفسير، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئًا. أفكنّا نظن أنّ صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر وأراد به خداعًا ومكرًا؟"([47]).

2- ما على الكتاب:

أخذ دارسو الكتاب مؤاخذات عدة متنوعة عليه، فمن ذلك غياب الموضوعية والحياد، بمعنى أنّ طه حسين لم يؤلف هذا الكتاب إلا بنيّة مبيّتة في قلبه

للانتقاص من شأن المتنبي، وفي هذا يقول عبد السلام نور الدين: "أما طه حسين فقد ألّف كتابًا ضخمًا في كشف عورات المتنبي اللغوية والفنية وعقده الشخصية. إنّ معظم ما قيل عن المتنبي لا يخرج عن دائرة الشتائم التي سددها أبو فراس إليه"([48]).

وفيه يقول مارون عبود أيضًا: "فبينا نراه في حديثه عن أبي تمام يصطنع أسلوب المدافع – حديث الشعر والنثر – إذا به في "مع المتنبي" يفتش عن العيب بالسراج، وإذا وجده ضحّى وعيّد، وإذا رأى لومة عدّها جناية وكانت فرحته راقصة وأسمعك الزفة في داره"([49]).

ولو صدقت هذه المؤاخذة لكانت مؤاخذة كبيرة بحقّ، لكن الدراسة الحالية لا تميل إلى ذلك؛ لأنّ طه حسين كان يضع قارئه على حسنات شعر المتنبي مثلما كان يضعها على سيئاته، وهذا ظاهر في الكتاب كله. وكونه قد فهم طبيعة شخصية المتنبي ونوعية أهدافه وأفكاره على غير ما قد يراه الآخرون فهذا، في حد ذاته، ليس مأخذًا يؤخذ عليه، ما دام يمتلك الشواهد والحجج التي يدعم بها رأيه.

ومما أُخذ على الكتاب أيضًا كونه استغنى بشعر الشاعر عن أخباره، يقول يوسف نور عوض: "وهل يجوز لنا أن نستغني بأشعاره عما روي لنا من أخباره؟ وهل تستقيم حياة فنان بما خلّفه من فن، ونحن نعرف أنّ الفن شيء والحياة الواقعة شيء آخر؟"([50]) وشبيه بهذا ما ذكره إبراهيم عبد

الرحمن محمد([51]). وتميل الدراسة الحالية إلى ضرورة تحديد المراد من هذه المؤاخذة على وجه دقيق: فإن كان المراد مؤاخذة طه حسين على حرصه الدائب على فهم جزئيات الأحداث التي عاصرها المتنبي من خلال شعره، فهي مؤاخذة في محلها؛ لوضوح أنّ الأديب ليس مؤرخًا ينقل تفصيلات الوقائع والأحداث كما تحققت فعلًا في الخارج، بل إنّ درجة الإبداع عند أي أديب تتمثل، في ضمن ما تتمثل، في مدى براعته في صهر الأحداث الخارجية في بوتقة ذاته، وإخراجها في أدبه مصطبغة بصبغته النفسية الخاصة.

وإن كان المراد أن يؤاخذ طه حسين على تحليل نفسية المتنبي وتتبّع تطوّرها من خلال شعره فهذا فيه مجانبة واضحة للدقة والموضوعية؛ لأنّ الشعر إن لم يكن دفقة من المشاعر والأحاسيس النفسية، فما عساه يكون؟ ولا مراء في أنّ المنهج النفسي في النقد الأدبي قائم أساسًا على محاولة تحليل نفسية الأديب من طريق فهم أدبه.

ويقتضي المقام هنا أن يشار إلى أنّ بعض الملحوظات المنهجية التي ذكرها دارسو الكتاب إنما هي، في الحقيقة، ملحوظات على الأصول النقدية التي استقى منها طه حسين منهجه في كتابه، أي على مذهب سانت بيف وتين في النقد. فمن هذا مثلًا ما ذكره كفافي من كون المؤلف قد اهتم بالأديب أكثر من اهتمامه بشعره([52])، وكذلك ما ذكره عبود عن تشدده في تتبع أثر

البيئة والزمن: "فمن يقول لنا: كيف يكون – وفي أكبر الظن أيضًا – مولد طفل أثرًا من آثار الفساد؟ فهذا لا أفهمه كما لم أفهم الاختلاف في الطفولة..."([53])، ومن هذا القبيل أيضًا ما أشار إليه الكعبي بشأن إسراف المؤلف في ملاحقة أثر ضعة النسب في المتنبي، ما قد يكون بوحي من تمسّك تين بقضية الجنس: "وكذلك لا نستطيع أن نرد مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي إلى شعور بالتعويض عن خساسة أصله ما دام ذلك لا يقوم عليه دليل"([54]).

ويرتبط بالمنهج كذلك ما أخذه معظم الباحثين على طه حسين من الاعتماد على التخمين في مقام التحقيق التاريخي، فمن ذلك مثلًا ما ذكره يوسف الحناشي تعليقًا على قرمطية المتنبي وشيعيته: "ويلفت انتباهنا في هذا التصريح ما استند إليه طه حسين من مجرد التخمين لإقرار شيعية المتنبي التي تطورت إلى قرمطية خالصة أيضًا"([55]).

إنّ هذا المأخذ، على خطورته ومنافاته لأصول البحث العلمي، دقيق وواقعي في الكتاب، لا بل يتكرر وقوع المؤلف فيه في غير موضع، كقوله مثلًا: "فقد يخيّل إليّ، بل أكاد أرجح أنّ المتنبي اتخذ هذا الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار. ومن يدري؟ لعله كان يريد أن يتخذ بدر بن عمار وسيلة إلى مولاه ابن رائق، وأن يتخذ ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة في

بغداد"([56])، وقوله أيضًا: "ولا أستبعد أن يكون المتنبي نفسه هو الذي قد تحدث بهذا كله"([57])، والأمثلة غير قليلة.

ولا يقلّ عن المأخذ السالف خطورةً ما أثير بشأن الأمانة العلمية عند المؤلف، وهذه الإثارة لها جانبان: فجانبها الأول هو أنه ما كان، في بعض الحالات، يعزو الآراء إلى أصحابها الحقيقيين، بل كان يعرضها بحيث يُخيّل للجاهل أنها من بنات أفكاره هو. وهذه القضية كانت إحدى أهم القضايا التي دعت محمود شاكر إلى كتابة مقالات عدة في جريدة البلاغ([58])، ألحقها بعدئذ بكتابه "المتنبي".

فمن المواضع التي لحظها شاكر حديث طه حسين عن علوية المتنبي، وهو يعلم جيدًا أنه قد سبقه إلى هذا دارسون من مثل بلاشير([59])، ومحمود شاكر([60]) نفسه، ولا شك في كونه مطلعًا على الكتابين، بدليل إشارته إليهما في كتابه. ومنها أيضًا قضية قرمطية المتنبي، وهي التي سبق أن تبناها المستشرق ماسينيون، فيما ينقله محمود شاكر([61])، وتبناها أيضًا بلاشير([62])، لكن طه حسين لم يشر إلى سبقهما هذا. علمًا أنّ هذه القرمطية لم تلقَ قبولًا لدى جمهرة من الباحثين من أمثال: هادي نهر([63])، وإبراهيم عبد الرحمن([64])، ومحمود شاكر([65]).

والجانب الآخر المتعلق بأمانة المؤلف هو ما يرتبط بكونه يتعمد تغيير ما ينقله عن المصادر القديمة لغايات في نفسه. يقول محمود شاكر:

"وفي هذا الكلام أعاجيب! فالدكتور ينقل عن كتاب مطبوع متداول هو خزانة الأدب للبغدادي ويحدد الجزء1 والصفحة382 ويقول: "إنّ المتنبي دُفع إلى مدرسة من مدارس العلويين، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين"، والنص هناك أنّ المتنبي: "اختلف إلى كُتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة، فكان يتعلم دروس العلوية شعرًا ولغة وإعرابًا"...فعل الدكتور هذه الفعلة المستهجنة لأنه أراد أن يتأول كلمة (العلويين) إلى (الشيعة)..."([66]).

والحقّ أنّ الدقة في النقل وإنْ كانت أساسًا لا يمكن تطرق النزاع إليه من أسس المنهج العلمي في البحث، بيد أنّ المطالبة بهذه الدقة شيء، والقول بأنّ مخالفتها ناتجة من غايات معيّنة في النفس شيء آخر مختلف تمامًا، فكيف يمكن الجزم بأنّ طه حسين أراد هنا (أن يتأول)؟

وتهمة التأوّل أثارها بعض الباحثين في سياق رميهم طه حسين بأنَّه كثيرًا ما كان يجانب الصواب في فهمه لأشعار المتنبي، فهو في نظرهم "ينظر في الشعر ليتأوله على هواه"([67])، وذكروا لذلك أمثلة متعددة([68]). ومن هذا المنطلق لم يجد أحدهم حرجًا في نفسه من أن يقول: "فليقرأ القارئ بيت المتنبي وشرح الدكتور الجليل، ليعلم صدق الذي نقول به: من أنّ الرجل متخلف الفهم في العربية، مضطرب الفكر في المنطق، لا بصر له بالشعر، ولا طاقة له على استيعاب معانيه، وما دام الأمر كذلك، فهو لا قدرة له على استنباط المعاني من الشعر"([69]).

وما دام الخطاب الشعري ليس كلامًا مباشرًا عاديًا يسلم لك زمام قياده بسهولة، وهناك دومًا حاجة إلى عملية "استنباط المعاني" منه، فمن أين لأحد أنْ يدّعي أحقيته في الوصول إلى معنى الشعر، ويحرم الآخرين من حق مماثل لحقه هذا؟ أليست حقيقة الشعر في جوهرها، عبارة عن القراءات المختلفة التي يمكن للقراء المختلفين أن يقرؤوه بها؟ فلا معنى إذًا لدعوى إنَّ قراءة ما قراءة حقيقية صحيحة وإنَّ القراءات الأخرى المخالفة قراءات (تأوّلية) دالة على تخلّف الفهم عند أصحابها!

ومن المؤاخذات المهمة التي سجّلها دارسو الكتاب عليه، تلكم التي تربط بالجانب المصطلحي فيه، فقد أشار دارسون عدة إلى أنّ طه حسين قد اكتفى بالمصطلحات النقدية التي استمدها من كتب النقد العربي القديم، فمن ذلك أنه أرجع القوام الفني لشعر المتنبي إلى خصلتين هما: المطابقة والمبالغة([70])، وفي هاتين قال صلاح فضل: "ولو شئنا أن نبحث لهما عن ترجمة نقدية معاصرة تضعهما في إطار فني أشمل لرأينا أنّ الطباق يعود إلى المحور السياقي التركيبي وأنّ المبالغة تعود إلى المحور الاستبدالي الإيحائي"([71]).

ومع أنّ صلاح فضل حاول أن يجد لطه حسين مسوّغًا إذ قال: "ولم يكن النقد في العقود الأولى من هذا القرن قد تجاوز مرحلة التناول الموضوعاتي والتحليل الفكري للنصوص، فإذا احتاج طه حسين لأدوات اصطلاحية ترتبط بهذا القطب الفني لم يجد سوى مجموعة التسميات البلاغية الفقيرة..."([72])، فقد أخذ عليه

أنه لم يستفد مما كان متاحًا بين يديه من مراجع: "وكان بوسع طه حسين أن يفيد من بول فاليري الذي قرأه وعرفه في هذه الآونة"([73]). ويمكن أن تضاف إلى فاليري مجموعة الأسماء من النقاد الذين لا شك في استفادة طه حسين المنهجية منهم ورجوعه إليهم، من مثل تين وسانت بيف، فكان ينبغي له أن يستفيد منهم مصطلحيًا أيضًا.

وتتبوّأ الأخطاء التاريخية التي قيل إنّ المؤلف وقع فيها مكانة مميّزة في المؤاخذات التي أخذها الباحثون على الكتاب، فمن ذلك ما ذكره محمود شاكر فيما يرتبط بنسب المتنبي: "ومن أخطاء هذا الكلام المموّه في اختلاف المؤرخين واتفاقهم أن يكتب الدكتور أنهم اختلفوا في اسم جده (فهو الحسين حينًا وهو عبد الصمد حينًا آخر)، وليس كذلك، فإنّ المؤرخين اختلفوا في اسم جده (والد أبيه) فقالوا هو الحسين أو الحسن أو مُرّة، أمّا جده الأعلى (والد جده) فسمّوه عبد الصمد أو عبد الجبار، فهذا خلط كما ترى"([74]).

وقد يطول المقام لو حاولت الدراسة تقصّي كل الأخطاء التاريخية التي حوسب عليها طه حسين، ولكن لا مناص من إشارات سريعة إلى أمثلة مما ذكره مارون عبود، وحده، في هذا السياق:

- ذهاب طه حسين إلى أنّ ضعف نسب المتنبي كان من أسباب تركه الكوفة([75]).
- محاولته البحث عن أعداء حقيقيين لجدة المتنبي([76]).

- دعواه أنّ المتنبي كان قد نسي نفسه تمامًا عند سيف الدولة([77]).
- حديثه عن تفوّق البيئة المصرية([78]).
- وصفه للمتنبي بأنه كان جبانًا([79]).

وإنّ كثيرًا مما يُذكر عادةً في هذا السياق ليس من الإنصاف عدّه من (الأخطاء التاريخية)، إذ هو من القضايا الإشكالية التي لم يتفق الدارسون على رأي محدد بشأنها، ولم يقل التاريخ فيها كلمته القطعية الثابتة التي لا تقبل جدالًا أو تعددًا لوجهات النظر، وللمؤلف كل الحق أن يدلي فيها برأيه، ما دام له مستنده فيما يذهب إليه.

وليس ينبغي لهذه الدراسة أن تختم حديثها عن المؤاخذات المتعلقة بالكتاب قبل أن تبرز ناحية خطيرة لم تنل – على خطورتها – ما تستحقه من اهتمام عند الدارسين. هذه الناحية هي حالة الكيل بمكيالين؛ إذ إنّ طه حسين يرتضي لنفسه أمورًا لا يتقبلها من الآخرين وينعاها عليهم. فحين يرفض، مثلًا، بعض الفروض التي ذكرها بلاشير بحجة أنّ "كل هذه فروض لا يرجّحها نصّ"([80])، نجده بعد صفحات قلائل فقط يرتضي لنفسه فرضًا من الفروض مع اعترافه بأنّ "هذا من غير شك، فرض من الفروض ليس في النصوص ما يدلّ عليه"([81]).

إنّ هذا الصنيع المتهافت من طه حسين ليجعل ذاكرة القارئ تعود به إلى ما كان قرأه سابقًا من قوله: "لست أدري أتسعدنا النصوص التي بقيت لنا من شعر المتنبي أم لا تسعدنا، ولكني قويّ الشعور بأنّ المتنبي

لم يرحل إلى الشام طالبًا للرزق فحسب، وإنما ذهب إلى الشام داعيةً من دعاة القرامطة..."([82])، فهو هنا يميل إلى ما يشعر به، بغضّ النظر عن كون النصوص ترجّحه أم لا، وهذا هو بعينه ما كان رفضه من غيره!

لم يكتفِ طه حسين، إذن، بلجوئه إلى التخمين، كما سبقت الإشارة، بل زاد الطين بلّة، كما يقال، حين حاسب غيره على اللجوء إلى التخمين المجرد، ما يعني كونه ملتفتًا إلى أنه خطأ منهجي، ومع هذا فقد سمح لنفسه بالمضيّ في الأخذ به!

نتائج البحث:

- لم يحدد طه حسين منهجه الذي اتّبعه في كتابه (مع المتنبي)، بل أشار في بدء كتابه إلى أنه لا يكتب كتابًا نقديًا، وإنما خواطر مرسلة، ففتح بذلك المجال أمام دارسي الكتاب ليختلفوا ما شاءت لهم قراءاتهم أن يختلفوا، ولتكون لهم في منهج الكتاب آراء متعددة.
- توصلت الدراسة الحالية إلى أنّ منهج طه حسين في كتابه هذا يقوم على التضافر بين ما ذكره كل من تين وسانت بيف، إضافة إلى حضور الانطباعية بقوة.
- كانت للكتاب أصداء إيجابية، وأخرى سلبية عند دارسيه، وقد تناول الباحث في هذه الدراسة أهم تلك الأصداء، وأبدى رأيه الخاص فيها.

الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، المادة "نهج".

[2] روزنتال، م، ويودين، ب، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط9، دار الطليعة، بيروت 2011، المادة "المنهج".

3 وهبة، مجدي، والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت 1984، المادة "المنهج".

[4] خرماش، محمد، المناهج المعاصرة في الدراسات الأدبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراس، فاس 1999، ص 115.

[5] حمداوي، جميل، "النقد العربي ومناهجه"، موقع ديوان العرب: www.diwanalarab.com

[6] فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، ص11.

[7] الطرابلسي، محمد الهادي، الشرط المنهجي في نقد الأدب، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس 2015، ص8.

[8] حسين، طه، مع المتنبي، ط12، دار المعارف، القاهرة 1980، ص9 ص10.

[9] نفسه، ص377.

[10] بو حسن، أحمد، الخطاب النقدي عند طه حسين، دار التنوير، بيروت 1985، ص133.

[11] عصفور، جابر، المرايا المتجاورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص305. ونص طه حسين موجود في كتابه (مع المتنبي)، ص240.

[12] المرايا المتجاورة، ص 190 ص 191.

[13] محمد، إبراهيم عبد الرحمن، (حياة المتنبي وشعره)، ضمن كتاب طه حسين وقضية الشعر، بحوث ودراسات بإشراف صالح جودت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975، ص133.

[14] نفسه، ص100.

[15] كفافي، عطاء، طه حسين وعباس العقاد موازنة لبعض مواقفهما النقدية، مجلة فصول، القاهرة، مج9، العددان 1و2 للسنة 1990، ص139.

[16] فضل، صلاح، حوار التماهي بين طه حسين والمعري والمتنبي، مجلة فصول، القاهرة، المجلد التاسع، العددان 1و2 للسنة 1990، ص32.

[17] مع المتنبي، ص38.

[18] "حوار التماهي..."، ص34.

[19] تقي الدين، السيد، طه حسين آثاره وأفكاره، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ج3 ص72.

[20] المرايا المتجاورة، ص9.

[21] مع المتنبي، ص71.

[22] لانسون، "منهج البحث في تاريخ الآداب"، في كتاب مندور: النقد المنهجي عند العرب، ص396.

[23] مع المتنبي، ص379.

[24] أندرسون، إنريك، مناهج النقد الأدبي، ترجمة الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة 1991، ص100.

[25] حسين، طه، في الأدب الجاهلي، ط10، دار المعارف بمصر، القاهرة 1969، ص43- 48.

[26] نفسه، ص47.

[27] البحيري، كوثر عبد السلام، الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1979، ص70.

[28] يراجع مثلًا كلامه ص17 من الكتاب، وكذلك ص277.

[29] بو حسن، أحمد، الخطاب النقدي عند طه حسين، دار التنوير، بيروت 1985، ص133.

[30] مع المتنبي، ص112 ص113.

[31] نفسه، ص180.

[32] المرايا المتجاورة، ص69 ص70.

[33] نفسه، ص222.

[34] مع المتنبي، ص178.

[35] نفسه، ص180.

[36] نفسه، ص363.

[37] نفسه، ص366.

[38] نفسه، ص21.

[39] المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[40] نفسه، ص84.

[41] طه حسين آثاره وأفكاره، ج3 ص116.

[42] معارك طه حسين الأدبية والفكرية، ص157.

[43] حوار التماهي...، ص35.

[44] مع المتنبي، ص300.

[45] يراجع: الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، جدة 1985، ص71.

[46] مع المتنبي، ص240.

[47] نفسه، ص303. وعبارة المؤلف هي في سياق رفضه للقول بأنّ مدائح المتنبي لكافور مبطنة بالهجاء.

[48] نور الدين، عبد السلام، المتنبي وسقوط الحضارة العربية، مجلة الأقلام، السنة13، العدد4 للسنة1978، ص57.

[49] عبود، مارون، الرؤوس، ط3، دار مارون عبود ودار الثقافة، بيروت 1967، ص255.

[50] عوض، يوسف نور، الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، دار القلم، بيروت، د.ت، ص143 ص144.

[51] حياة المتنبي وشعره، ص121.

[52] طه حسين وعباس العقاد موازنة...، ص139.

[53] الرؤوس، ص178.

[54] الكعبي، منجي، مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي، مجلة الآداب، العدد11، السنة1977، ص20.

[55] الحناشي، يوسف، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، الدار العربية للكتاب، تونس1984، ص27.

[56] مع المتنبي، ص116.

[57] نفسه، ص277.

[58] جريدة البلاغ هي صحيفة يومية مصرية أصدرها عبد القادر حمزة في العام 1923، وتوقفت عن الصدور في العام 1953م. عرفت باتجاهها القومي وموقفها المدافع بقوة عن الوحدة العربية، في مقابل المدافعين عن الخصوصية الثقافية المصرية من مثل طه حسين. (المعلومات من موقع ويكيبيديا على الشبكة الإلكترونية).

[59] بلاشير، أبو الطيب المتنبي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق1975، ص45.

60 شاكر، محمود، المتنبي، دار المدني بجدة ومكتبة الخانجي بمصر 1987، ص167 وما بعدها.

61 نفسه، ص499.

62 أبو الطيب المتنبي، ص50 و 135.

63 نهر، هادي، مع المتنبي في شعره الحربي، الجامعة المستنصرية ، بغداد1979، ص289 وما بعدها.

64 عبد الرحمن، إبراهيم، حياة المتنبي وشعره، بحث في كتاب طه حسين وقضية الشعر، ص129 وما بعدها.

65 المتنبي، ص487 وما بعدها.

66 نفسه، ص472.

67 الرؤوس، ص255.

68 يراجع مثلًا: الرؤوس ص182 ص183، والمتنبي ص409.

69 المتنبي، ص457.

70 مع المتنبي، ص50 وما بعدها.

71 حوار التماهي...، ص34.

72 نفسه، والصفحة نفسها.

73 نفسه، ص35.

74 المتنبي، ص419.

75 الرؤوس، ص176.

76 نفسه، ص177.

77 نفسه، ص209.

78 نفسه، ص216- 223.

79 نفسه، ص235.

[80] مع المتنبي، ص352.

[81] نفسه، ص360.

[82] نفسه، ص47 .

المراجع:

- إمبرت، إنريك أندرسون، مناهج النقد الأدبي، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، 1991م.
- البحيري، كوثر عبد السلام، الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979م.
- بلاشير، أبو الطيب المتنبي، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1975م.
- بو حسن، أحمد، الخطاب النقدي عند طه حسين، دار التنوير، بيروت، 1985.
- تقي الدين، السيد، طه حسين وأفكاره، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- جودت، صالح (إشراف)، طه حسين وقضية الشعر، بحوث ودراسات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م.
- حسين، طه، في الأدب الجاهلي، ط10، دار المعارف، القاهرة، 1969م.
- حسين، طه، مع المتنبي، ط12، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
- الحناشي، يوسف، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.
- خرماش، محمد، المناهج المعاصرة في الدراسات الأدبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراس، فاس، 1999م.

- روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط9، دار الطليعة، بيروت، 2011م.
- شاكر، محمود محمد، المتنبي، دار المدني بجدة ومكتبة الخانجي بالقاهرة، 1987م.
- الطرابلسي، محمد الهادي، الشرط المنهجي في نقد الأدب، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2015م.
- عبود، مارون، الرؤوس، ط3، دار مارون عبود ودار الثقافة، بيروت، 1967م.
- عصفور، جابر، المرايا المتجاورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م.
- عوض، يوسف نور، الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، دار القلم، بيروت، د.ت.
- الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1985م.
- فضل، صلاح، حوار التماهي بين طه حسين والمعري والمتنبي، مجلة فصول، القاهرة، المجلد التاسع، العددان 1و2، أكتوبر 1990م.
- فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، ط2، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013م.
- كريم، سامح، معارك طه حسين الأدبية والفكرية، ط2، دار القلم، بيروت، 1977م.
- الكعبي، منجي، مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي، مجلة الآداب، بيروت، السنة25، العدد11، نوفمبر 1977م.
- كفافي، عطاء، طه حسين وعباس العقاد موازنة لبعض مواقفهما النقدية، مجلة فصول، القاهرة، المجلة التاسع، العددان 1و2، أكتوبر 1990م.

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
- مندور، محمد، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- نهر، هادي، مع المتنبي في شعره الحربي، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1979م.
- نور الدين، عبد السلام، المتنبي وسقوط الحضارة العربية، مجلة الأقلام، بغداد، السنة13، العدد الرابع، كانون الثاني 1978م.
- وهبة، مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.